الفصل الرابع

النواحى العقلية المعرفية

إن نواحى الشخصية العقلية ، ومركباتها النفسية ، من حيث القدرات والمواهب والعوامل المزاجية والصفات الخلقية هى ميدان علم النفس الحقيق ؛ والدراسة التفصيلية لهذه النواحى يمكن أن تطول وتتشعب حتى تشمل علم النفس بأكمله . وتسهيلا للبحث كالمعتاد نلجأ إلى تقسيم هذه النواحى العقلية إلى : النواحى المعرفية ، والنواحي المزاجيـة ، والنواحى الخلقية . وسأتناول الآن أثر النواحى العقلية المعرفية فى تكوين الشخصية . .

من حسن الحظ أن هذا الركن من أركان الشخصية هو أكثر النواحى وضوحا وتحديداً نظراً للدراسات الـكثيرة التى تمت فى محيطه ؛ فالحياة العقلية المعرفية أكثر خضوعا للقياس والتحديد من الحياة المزاجية أو الخلقية .

ونظراً لهذا الوضوح ، وللنتائج الثابتة نسبياً التى وصل إليها علماء النفس فى هذه الناحية ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين حديثا

فى موضوع الشخصية يمر على هذه الناحية مروراً سريعا باعتبار أن حقائقها قد أصبحت أمراً معلوما للكثيرين .

والمقصود بالنواحى المعرفية تلك العمليات والعوامل العقلية التى يتوقف عليها كسب المعرفة والخبرة بما تشمل من إدراك وتصور وتخيل وقدرة على التذكر والتفكير والتعلم ، وبما يتطلبه كل ذلك من ذكاء عام ومواهب أو قدرات خاصة .

ويمكن فى دراستنا للشخصية أن ندرس هذه النواحى المعرفية من حيث : (ا) العمليات العقلية وتدرج مستوياتها من البسيط إلى المركب ، أو : (ب) من حيث تقسيم القدرات العقلية إلى عوامل عامة وطائفية ونوعية .

(ا) العمليات العقلية ومستوياتها

أما من حيث المستويات فقد دلت الأبحاث النفسية على أن هناك ارتباطا كبيراً بين النواحى الجسمية والحركية والنواحى الإدراكية والمعرفية ، وأن هناك نوعا من التدريج يوضح تداخلها وتعاونها دائما بحيث يصعب أن نجد بينها حدوداً فاصلة ؛ لأن الشخصية كلها وحدة متكاملة كما سبق القول . ويمكن أن نلمس هذا التدريج فى المستويات الآتية : —

١ — المستوى الحسى الإدراكى (Sensori - Perceptual revel)

٢ — المستوى الإدراكى الحركى (Perceptu - Motor level)

٣ — المستوى الترابطى (Associative Level)

٤ — مستوى إدراك العلاقات (Relational level)

المستوى الحسى الإدراكى :

ويشمل العمليات العقلية التى تتعلق بالإبصار والسمع ، والذوق والشم ، وباقى الحواس الأخرى ، وما يتصل بها من مسالك عصبية تساعد على وصول الإحساسات إلى المراكز المخية لإدراكها وتمييزها . ويختلف الناس فى استجاباتهم الحسية الإدراكية من حيث السرعة والبطء ، ومن حيث الوضوح والغموض . وتقاس الاختلافات بين الأشخاص فى هذه النواحى بوسائل مختلفة مثل قياس زمن الرجع (Reaction time) وهو الزمن الذى يمضى بين حدوث المؤثر والرد عليه ، كما تقاس أنواع الإحساسات بما يناسب نوعها بصرية كانت أو سمعية أو لمسية ... وهكذا . ويرتبط بهذا المستوى ما يكون لدى الشخص من قدرة على الانتباه والملاحظة ، وإن كانت هذه ترتبط أيضاً بعوامل أخرى فى الشخصية .

المستوى الإدراكى الحركى :

ويشمل الاستجابات الحركية المبنية على الإدراك كالتوافق الحركى فى عملية الإبصار وتكييف العين ، أو أوضاع الرأس المناسبة لاستماع الأصوات بحسب مصادرها . أو حركة الأطراف عند الاستجابات الإدراكية المختلفة ، وما ينطوى تحتها من مهارات يدوية وتوافق حركى .

ويلاحظ أن هذه الاستجابات جميعا — مع وضوح العنصر الجسمى فيها — مبنية على عمليات عقلية ؛ ولهذا يصح أن نعالجها كناحية عقلية معرفية ، ففى أغلب الحالات نجد أن التغيرات الحركية مظاهر لتغيرات عقلية . وهنا يتبين جيداً أن من الصعب أن نفصل بين النواحى الجسمية والنواحى العقلية .

المستوى الترابطى :

ويظهر أثر النواحى العقلية بوضوح أكثر عند ما نحاول تحليل العمليات العقلية فى المستوى الترابطى ، وهى التذكر والتصور ، وتداعى المعانى ، والتخيل والوعى والحفظ ، وتكوين العادات المعرفية . فإدراكنا للجديد يتبعه عادة حدوث ارتباطات مع ما فى الذهن من مجمعات عقلية تكونت فى الماضى من الخبرات السابقة . . وهذه المجمعات تجتذب إليها المدركات الجديدة ،

وبهذا التفاعل المستمر يتم الاختيار الذى يقوم به العقل فى انتقاء ما يدور فى مجال السلوك من مدركات مختلفة . ويختلف الناس كثيراً فى مقدراتهم الترابطية ، وكلنا يعلم الفروق الفردية فى التذكر والنسيان ، وفى سرعة استحضار الصور الذهنية المرتبطة بمثيرات خاصة . وليس هذا فقط ، بل يختلف الناس أيضا فى تفكك محتويات عقولهم أو تماسكها ، وما يتبع ذلك من تفكك أو تسلسل فى أفكارهم وتعبيراتهم .

ومما يجدر معرفته فى هذا المستوى بالنسبة لدراسة الشخصية اختلاف الناس فى نوع مخيلاتهم التى تسهل عليهم عمل الترابطات اللازمة للتذكر أو الحفظ ؛ فمن الناس من يكونون بصريين ، ومنهم من يكونون سمعيين ، ومنهم من يكونون حركيين ، وهكذا على حسب الناحية القوية فيهم من حيث القدرة على التخيل . ويتضح هذا الاختلاف من الأمثلة الآتية : — هناك أشخاص يفكرون بصور بصرية غالبا ، وعند ما يحفظون أو يستذكرون يعتمدون على الإدراك والتخيل البصرى عند التذكر ، فيتذكرون العبارات بمكانها فى السطر أو الصفحة مثلا . بينما نجد أشخاصاً آخرين يميلون إلى التفكير بصور سمعية ، ويفضلون أن يستعموا بآذانهم ، وأن يتصوروا النغمة والأصوات

التى سمعوها عند محاولة التذكر ، بل إن بعض الناس يوجد عندهم التخيل الحركى بوضوح فى أفكارهم وتصوراتهم . . ويمكن أن نعرف هذه الأنواع من الشخصيات بأساليبهم فى الكتابة أو فى الحديث . . فإذا طلبت من ثلاثة أشخاص أن يشرحوا لك ما حدث فى حفلة ساهرة مثلا فإن النوع البصرى سيغلب على حديثه ما رأى وما يتصوره بصرياً من ألوان الملابس والأنوار وأوصاف الأشخاص من أماكن جلوسهم وهكذا ، بينما تجد النوع السمعى يصور لك الحفلة بطريقة تغلب فيها الصور السمعية للموسيقى أو الغناء ، أو أصوات الحاضرين ، أو ما كان هناك من ضوضاء وسكون . . وأما النوع الحركى فيستعين بيديه وحركاته مقلداً ما حدث من حركات وانتقالات ، وإشارات حركية وهكذا ؛ على أن هذه الأنواع من الشخصيات لا تظهر بوضوح إلا فى الحالات الظاهرة كما فى أعراض الأمراض العقلية المختلفة. ولكن أغلب الناس العاديين لديهم هذه القدرات المختلفة بنسب يصعب فيها تمييز نوع الشخصية التى ينتمون إليها .

مستوى إدراك العلاقات :

فى هذا المستوى من العمليات العقلية نجد أيضا حدوث ارتباطات كما فى العمليات العقلية فى المستوى السابق ، ولكن الارتباط فى هذه المرة لا يحدث بطريقة ميكانيكية وإنما يحتاج

لإعمال العقل فى إدراك العلاقات بين المترابطات ، وفى تكوين علاقات جديدة ليستفيد بها العقل . ويتضح هذا فى العمليات العقلية الخاصة بالتفكير والاستنتاج ، واستخلاص النتائج من المقدمات ، والتخيل والابتكار .

وطبيعى أن العقل فى هذا المستوى يعتمد على جميع العمليات العقلية فى المستويات السابقة أيضاً ، بل إن إدراك العلاقات قد يحدث أيضاً فى أحد المستويات السابقة ، إذ أن الإدراك الحسى يعتبر إدراك علاقة بين المحسوسات ومدلولاتها ؛ وتكوين العادات الحركية أو المهارات اليدوية يعتمد فى أساسه على تكوين علاقات معينة وعمل ارتباطات ثابتة بين سلسلة من الخبرات . وهكذا يمكن أن ندرك أن أية ظاهرة نفسية يمكن أن تظهر بدرجات مختلفة فى المستويات العقلية المختلفة .

ويمكن أن ندرك أهمية العمليات العقلية فى هذا المستوى فى تكوين الشخصية إذا علمنا مبلغ الاختلافات الفردية فى القدرة على التفكير والابتكار ؛ فمن الناس من يتبع خطوات بطيئة مرتبة صريحة فى تفكيره ، ومنهم من يعتمد فى تفكيره على الإلهام والخطوات الضمنية ، ومنهم من لا يحسن التفكير إلا فى مجال ضيق الأفق ، ومنهم من يستطيع الإلمام بأطراف الموقف ويستعرضه كله بوضوح وجلاء وهكذا .

على أن أهم ما يمكن أن ننظر إليه فى هذا المستوى هو القدرة على تقدير الجمال وما ينطوى تحت هذه القدرة من اختلافات فردية ؛ فهناك من يهتمون فى نظرتهم الجمالية بالحقيقة الواقعة ، أو ما يلمسونه بحواسهم ، ويقابل هؤلاء فريق خيالى ينساق فى أحكامه وتقديراته للجمال على ما يستثار فى نفسه من عواطف وانفعالات وخيالات ، وهناك من يبدعون فى الابتكار الفنى التعبيرى كالموسيقيين والمصورين والشعراء ، ومن توجد عندهم القدرة على تقدير الجمال وتذوقه بدون أن يكونوا أنفسهم فنانين . . وهكذا . .

هذا ويظهر أثر الذكاء فى هذا المستوى بوضوح كبير لدرجة أن سبيرمان (Spearman) عرف الذكاء بأنه القدرة على إدراك العلاقات واستنتاج علاقات جديدة أو إدراك المتعلقات . ولكن ينبغى أن ننظر للذكاء نظرة أوسع بحيث يشمل جميع المستويات السابقة . فهو القدرة الفطرية المعرفية العامة التى يمكن الاستفادة بها فى جميع العمليات العقلية .

(ب) القدرات العقلية المعرفية

يولد الناس جميعاً مزودين بنفس الأنواع من العمليات العقلية التى رأيناها فى المستويات السابقة ، ولكنهم بجانب ذلك يزودون

بقدرات متفاوتة ، ومواهب مختلفة من حيث الدرجة ؛ ولهذا نجد أنه مع ما لجميع الأفراد من الحق الطبيعى فى التمتع بالحياة بكل ما فيها ، إلا أن ما ركب فى نفوسهم من استعدادات مختلفة يجعل من المستحيل أن تتساوى الفرص التى تتاح لكل منهم ؛ ومع ما لكل فرد من الحق فى التعليم إلا أن من الخطأ أن نتجاهل الفروق الفردية وأن نعطى الجميع نفس النوع من الدراسة والتثقيف . فمبدأ تكافؤ الفرص إذن يخضع لشرط ضرورى جداً ، وهو وجود الدرجة الكافية من الاستعداد الفطرى ، وتوافر القدر اللازم من القوى والقدرات العقلية ، بحيث يصح أن تتكافأ الفرص إذا تساوت الاستعدادات والمواهب .

ولكن ما هى هذه الاستعدادات أو القدرات العقلية التى تتحكم فى مدى ما يمكن المرء أن ينال من فرص فى هذه الدنيا ؟

من المهم أن نجيب عن هذا السؤال فى هذه المناسبة خصوصاً أن هذه القدرات والمواهب هى التى تحدد المستوى الممكن أن تصل إليه الشخصية من حيث المركز الثقافى والاجتماعى ، وما يحتمل أن تتصف به الشخصية من حيث الأسلوب العام فى الحياة .

من الممكن — لتسهيل دراسة هذه القدرات — أن نقسمها كما يأتى : —

أولاً : القدرات المعرفية الفطرية وتشمل :

(ا) القدرة العامة أو « الذكاء » .

(ب) القدرات الطائفية أو « القدرات الخاصة » .

ثانياً : القدرات المعرفية المكتسبة وتشمل :

(ا) الثقافة العامة عند الشخص .

(ب) الثقافات الخاصة أو أنواع التخصص الدراسى والمهنى .

وسأتناول هذه القدرات بشىء من التفصيل فى الفصول القادمة .

oberikandi.com